مهزلة المهازل

يقول لي ونحن في نزهاتنا الصباحية:

-مساكين العمال.. مساكين الفلاحون.. الكل يتحدث باسمهم، يتسلقون السلم الإجتماعي باسمهم، يسكنون القصور باسمهم، يهدرون طاقات الأمـة باسـمهم، ينهبون ثروات الأمة باسمهم.. ان الإشتراكيات في العالم الثالـث هـي مهزلـة المهازل.. لم يكن لينين محقا حين قال بأن الإشتراكية يمكن بناؤهـا فـي بلـد متخلف، فالإشتراكية لا يمكن بناؤها الاّ في بلد متقدم عن الرأسمالية.. وهي لـم تستطع أن تبرر وجودها حتى اليوم.. ولا يمكن أن تبنى في بلد واحد.. انها نظام عالمي يجب أن يسود عالميا ليكون له فعل في التاريخ.. الإدعاء بأنهم وصـلوا الى عتبة الشيوعية إدعاء لا يستند الى الواقع، ولا يقود الاّ الى تكـسّر الأحـلام على صخوره المسننة..

كنا على شاطئ البحر وأولادنا حولنا يلعبون على الرمال. سألته:

-أحقا قلت لهم بأن النظرية شاخت.. هذا ما يروجونه عنك في سوريا!

-ربما قلت ذلك! انني لآ أذكر لمن قلته.. قلت لهم لا تنقبـوا كثيـرا فـي الكتب.. أقول لكم أن العصر تغير، والعملاء تغيرت ملامحهم.. انهم نمط جديـد ليس كنمط من درجنا على معرفتهم.. وهذا الذي تحسبونه طريق اشتراكيا ما هو الاّ استمرار للطريق الرأسمالي، وليس هذا هو الذي يقود الـى هـدف تحريـر الإنسان من الإستغلال والعبودية.. فالتأميم ظاهرة وليس غاية في الإشتراكية، أما الغاية فهي التوزيع العادل للثروات.. فما أبعد هذا الطريق عن هذه الغاية.. طبقة جديدة تحكم، طبقة منقطعة عن الإنتاج والمنتجين، طبقة لـم تعرفهـا الثـورات السابقة، طبقة نمت مع نمو الإستعمار الحديث.. هذا ما أعنيه بالبيروقراطيـة.. طبقة تحارب بسيف ذي حدين الإقطاع والبرجوازية عن يمينهـا والإشـتراكية العلمية عن شمالها.. ان طريقها غير طريقنا، فلا تخدعوا بوجههـا التقـدمي،

ولكن لات من يستمع ويعتبر.. قلت لهم إنها فقس جديد كما الفرخ يحطم قـشرة البيض التي تحيط به وتعيق نموه سيان أكان فرخ عقاب أو فرخ حمام، كان لابد للفقس أن يحطم.. فلا تدعوا غبار الحطام يغشى أعينكم فلا ترى الفقس الجديد..

قلت لهم ان لينين ليس ضارب ودع أو منجم يستغفل سذاجة الناس ليقـنعهم بأنه يستشرف المستقبل لعشرات السنين بعده.. نحن نسيء الى عظمته حين ننزله من مرتبة العالم الى مرتبة ضارب الودع.. لم يعش عصرنا، لم يصعد الى القمر ليشاهده حجارة وترابا.. لم ير الأقمار الصناعية ولم يسمع بالذرة وأمكانياتها في تدمير العالم، لم يستطع أن يتصور مرحلة الإحتكار العالمي الذي يجعل لفرد من القوة بحيث يمكنه أن يستعبد مائة وخمين بلدا بتروليا.. ولكننا نعيش هذا الواقع، نحسه بلسع السياط على جلودنا.. نحن الذين نعيش في العالم الثالث، وندرك مـا يعنيه الإستعمار الحديث ووسائله الجهنمية بنهب ثرواتنـا وقهرنـا بـالحروب الأهلية، والديون، والدكتاتوريات البائسة.. ان الصورة لهذا الواقع هي أوضح ما تكون لعيوننا ولا يحس به ساكن موسكو أو بكين.. فلم نفتش عن آرائنـا عنـد الغير وننقب في الكتب العتيقة كأنها كتب مقدسة ونقع في الوثنية كمـا وقعـوا، ونجمد أمام واقع يتغير بسرعة البرق؟ لم نعطل عقولنا وننجرف بـإرادة غيـر واعية، وننقض اليوم ما قلناه بالأمس، ونمجد الساعة من أزرينا به قبل سـاعة؟ من يصغي الينا بعد هذا ويحترمنا؟..

* * *